عرض الامر على الاسقف المكاني وبعد ان يفحص عن السبب ويراهُ قانونيًا شرعيًا فليسمح لهُ (لها بقيَّة)

قدوة الدارسين

نظر تاريخي للاب فردريك بوتيه اليسوعيّ

صارت بيروت منذ خمسين سنة معهدًا للعلوم فترى في اوّل كلّ عام مدرسيّ عددًا وافرًا من الاحداث يتسارعون اليها من انحاء الشام ومصر والاناضول ليستقوا من مواردها العذبة ومناهلها النميرة مياه المعارف وافاويق الآداب التي جعلتها في مقدّمة الحواضر الشرقيَّة التي تحطّ عندها رحال طلبة العلوم

وليست هذه اوّل مرَّة حظيت بيروت بان تكون مقامًا للآداب يتقاطر الى مدارسها اذكياء الشبان ليثقّفوا فيها اذهانهم ويترشّحوا للمناصب العالية فانّها جلست على منصَّة الفخر في عهد الرومان فاحرزت لها اسمًا طيّبًا في الدروس الشرعيّة وخرج منها قومٌ من العلماء توّجوها باكليل من الفخر لا يزال يسطع نورهُ في مجالي التاريخ

ومنّ شرّفها بسجاياهُ الطيّبة وخصالهِ الفريدة وموتهِ العجيب في سبيل الدين شابٌّ في مقتبل العمر يدعى أفيان او امفيان (١ خصَّهُ الله ببهبات علويَّة وجعلهُ كقدوة للدارسين . وسيرة هذا الشهيد قد كتبها احد معاصريهِ الاجلّاء ألا وهو اوسابيوس القيصري المعروف بابي التاريخ الكنسيّ سطّرها في كتابهِ المدعون بشهداء فلسطين فبهمّتهِ سلمت من الضياع تلك الدرَّة الثمينة التي تزفّها اليوم لاحداث طلبة بيروت في مفتتح السنة المدرسيَّة رجاء ان يعمل مثلُ رصيفهم في صدورهم فيحملهم على حبّ العلم والفضيلة معًا

واعلم انَّ مستندنا في كتابة ترجمة هذا البطل المسيحيّ على نسخٍ مختلفة من تاريخ اوسابيوس كُتبت في اليونانيَّة ثمَّ نُقلت الى السريانيَّة واللاتينيَّة وبين هذه النسخ بعض التباين في سمة المادَّة والتفاصيل كأنَّ اوسابيوس كتب ما كتب غير مرَّة فوقف

(١ ورد هذا الاسم باليونانيَّة على صورتين Ἀμφιανός و Ἀφιανός وعندنا ان الصورة الثانية هي الاصحّ

على معلومات جديدة اضافهـا الى ما دوّنهُ المرّة الاولى . ونحن نستفيد من هذه الاصلاحات زيادةً في الفائدة (١

*

ولد افيان في اقليم ليقية جنوبي آسية الصغرى في بلاد كان الرومان بسطوا عليها سيطرتهم فالحقوها باقليم بمفيلية . ووقع تلك الناحية شمالي غربيّ بلاد الشام : وهي مواطن كثيرة الخيرات انبت الله فيهـا هذه الزهرة البهيّة فزادها حسنًا وبهاء . وكان مولدهُ في مدينة تدعى باغا لعبت بها ايدي الدهر فابادت آثارها

وكان ابوا افيان من وجوه القوم . فان والدهُ كان شريفًا ذا ثروة لهُ بين مواطنيهِ مقام اثير . وكان الرومان يعوّلون على مثلهِ للحكم في بلدهِ . وكان لافيان اخٌ يُدعى ادلسيوس يشبههُ في اخلاقهِ الطيّبة اختارهُ الله لهُ رفيقًا وموازرًا في كلّ اعمالهِ الحسنة وجعلهُ رصيفهُ في موتهِ الباسل . وكان والدهما يبني عليهما الآمال الطيّبة فاخذ يعدّهما منذ نعومة الاظفار ليخلفاهُ في رتبتهِ الممتازة بين قومهِ

وكان من شأن ذلك الاب ان لا يقصر امانيَّهُ في دنياهُ الحاضرة بل يصرف نظرهُ الى ما هو اسمى واثبت ليطبع في قلب ولديهِ حبّ خالقهما لكنَّهُ لسوء الطالع كان وثنيًا تربّى في عبادة الاصنام ورضع مع الحليب خرافات آلهة اليونان ومزجها باساطير العبادات الشائعة في الاقطار المجاورة لوطنهِ . ولا غرو انـهُ ردّدها على مسامع ولديهِ فشغل ذهنهما بتلك الاقاصيص التي كانت تهبط باللاهوت الى دركات الآثام البشريّة . ولا نعلم أيكون الولدان وجدا بين اهلهما او جيرتهما احدًا من النصارى يبيّن لهما بطلان تلك الطواغيت وليس الامر بعيدًا مع ما نعلمهُ من انتشار الدين المسيحيّ في تلك الاقطار التي تقبّلت النصرانيّة منذ عهد الحواريين الكرام كما ترى في كتاب اخبار الرسل وفي تآليف المعاصرين

وما لا ريب فيـهِ انَّ والدهما اراد ان يتخرّجا على آداب الاشراف في احدى المدارس الشهيرة التي كان يقصدها ابناء الأسر الكريمة . وكانت بيروت في ذلك

(١ راجع طبعة برونو تيبله (B. Violet: *Die Palaestinischen Martyrer*, Texte und Untersuch., Leipzig, 1894) واطلب ايضًا مجلّة الآباء البولنديين (Analecta Bollandiana, *XVI*, 122 seqq.)

العهد تسللت اليها الانظار بمدارسها الشرعية فكان يتأدب اليها كلّ من يريد درس الحقّ الروماني الذي كان اهل ذلك الزمان يرجعون اليه في احكامهم . وكان يعلّم فيها الاساتذة النطاسيّون ممّن يُشار اليهم بالبنان كالقانونيّ اولبيان الشهير وغيره كثيرين . امّا الدارسون في كليّة بيروت فقد اشتهر بينهم عدد لا يُحصى . فالى هذه المدرسة وجّه فكره ابو افيان واداسيوس لشقيف ولديه ليس فقط لشهرة بيروت بل لقربها ايضاً من ليقية وكانت السفن الشراعيّة تقطع المسافة بين البلدين بخمسة أيام وهي مدّة قصيرة بالنسبة الى تلك القرون . ونحن نعلم انّ عدداً من طلبة ذلك الزمان كانوا يأتون من بلاد ابعد ويتجاوزون الى فلسطين ليتعلّموا في مدرسة قيصريّة . كالقديس غريغوريوس العجائبيّ واخيه اثانودورس وكانا قدما من بلاد بنطوس وتتلمذا في قيصريّة فلسطين لاوريجانوس الاسكندريّ

لا نصف وداع افيان واداسيوس للاهل والوطن اذ قضي عليهما لاوّل مرّة ان يبتعدا عن مسقط رأسهما وهما اذ ذاك في ميعة الشباب في الرابعة او الخامسة عشرة من عمرهما . فبقيا مدّة على ظهر السفينة ينظران الى الاحباب حتّى غابت عنهما سواحل ليقية فشعرا بانقباض في القلب اذ وجدا نفسهما على الراح خفيفة تغطّيها السماء ويتلاعب بها تيّار الماء . فكنتهما في غد النهار مرّا على قبرس فما زالا مدّة ساعات متتابعة يسرّحان الابصار في جبالها واوديتها وكرومها وابنيتها . ثم عقبها في اليوم الرابع منظر لبنان ومشاهدهُ الفتّانة الى ان لاحت لهما مدينة بيروت . فأخذ منظرها من مجامع قلبهما واقرأها السلام تلك الحاضرة التي كان الرومان يدعونها بيوليا السعيدة وتعجّبا ممّا كان يزينها من الابنية الشاهقة كملعبها الكبير ورواقها العمومي ولا سيّما هيا كايا كهيكل عشتاروت الفينيقيّة وهيكل إلهة السعادة وهيكل المشتري البعلبكي الذي كان يرتفع فوق المدينة على اكمة بيت مري

فكل هذه المشاهد كانت تحيك في صدر الولدَين والسفينة تسير بهما الى المرسى وهما يجهلان ما سيحصل لهما في تلك المدينة حيث ساقت بهما العناية الالهيّة ليستنيرا بانوار الدين الحقيقي ويخلعا عنهما ربقة الوثنيّة

وما نزلا من السفينة الى البلد حتى اسرع الى ملاقاتهما بعض الدارسين وتحفّوا بهما لا سيّما الذين كانوا من جهات بلادهما . ومن عادات الدارسين في كليّة بيروت

ما اخبر به زكريا المدرّس احد كتبة القرن السادس انهم كانوا اذا ارست سفينة جديدة اسرعوا الى ملاقاة الشبّان القادمين ليتخرّجوا معهم في المدارس وهم يرافقونهم بجلبة عظيمة ثم يعرضون عليهم اموراً هزليّة ليضحكوا منهم ويتلهوا بهم او ينالوا منهم بعض الدراهم يصرفونها في المشارب والمآكل

ولعلّ افيان واخاهُ اداسيوس بما طُبعا عليه من الرصانة والعزم افلتا من هذه السخريّات . ونحن نتأسّف على انّ اوسابيوس القيصري لم يتسع في الكلام على سيرة الطلبة القادمين الى مدارس بيروت كما انهُ اقتصر في كلامهِ عن الدارسَين اللبقين على ذكر احدهما افيان دون اداسيوس اخيهِ الذي سكت عن اعمالهِ في بيروت ولم يعد الى ذكرهِ الّا في آخر حياة اخيهِ في مدينة القيصريّة حين تتلمذ كلاهما لاستفها بمفيل فيظهر من قول المؤرخ انّ الاخوين كانا كفرسي عنان يتسابقان في ممارسة كلّ الفضائل

واوّل ما نستفيدهُ من تاريخ اوسابيوس انّ الشقيقين انقطعا الى الدرس انقطاعاً تامًّا واقبلا على احراز العلوم ايّ اقبال فكان لهما الدرس كصوان حفظ قلبهما من المذّات واللاهي الباطلة وكملح انقذهما من فساد رفقتهما . وكان درس السُّنَن الرومانيّة يقتضي زمنًا طويلًا واتعابًا همّة مشتة فلم يثبّط ذلك شيئًا من همّة الدارسين بل لم يكتفيا بذلك حتّى اخذا يشتغلان ايضًا بالدروس التي لها بعض العلاقة مع الحقّ القانونيّ كدروس البلاغة والتاريخ . وكان افيان مشغفًا بالدروس البيانيّة فوجد في مدارس بيروت ما يروي غليلهُ من هذا القبيل . كيف لا وكان المؤرخون يلقبون تلك المدينة بأم البلاغة ومدرسة الفصاحة . فعُرف بعد قليل كخطيب مصقع . امّا اداسيوس فكان يفضّل الدروس الفلسفيّة فكنت تراهُ يخصّص اوقات الفراغ بمطالعة التآليف المنطقيّة والحكميّة بل لبس البردة التي كان فلاسفة ذلك العصر يتّخذونها كشعار لرتبتهم

على ان اوسابيوس القيصري مع تعزيفهِ لنا بهمّة افيان واخيهِ في احراز العلوم لم يشفِ الاطالة في ذلك فاكتفى بقولهِ انّ الاخوين نالا من هذه الكنوز الادبيّة ما لم ينلهُ اترابهما . لكنّهُ ضرب الصفح عن الشرح الطويل في ذكر مناقبهما هذه الطبيعيّة ليبسط الخبر عن تنصُّر افيان ووصف فضائلهِ

قال اوسابيوس : « وقضى افيان عدّة سنين في بيروت ليتقن فقه الرومان ولمّا كان رفقتهُ الدارسون يتحاملون على رشف كأس المذّات وينهمكون في الملاهي كان هو

يزدري باهواء الجسد ويقاوم الاميال الباطلة فلم يسمح لنفسه الامّارة ان تهبط به في حمأة الفساد وابتعد عن الشبّان الذين كانوا يقصدون ان يجذبوهُ الى المحرّمات . فكان على خلاف الامر يعيش في البرّ والحشمة والقناعة ويسير على تعاليم النصرانيّة ويزدان بالآداب الطيّبة الموافقة لها »

*

فمن قول اوسابيوس هذا يلوح جليًّا بان افيان تنصّر في بيروت ونبذ ظهريًّا عبادة الاوثان . امّا كيف حدث لهُ ذلك وبايّ طريقة اتّصل الى معرفة الدين المسيحيّ فسكت عنهُ اوسابيوس . ومن المحتمل انهُ وجد في بيروت بين الدارسين او بين الاساتذة بعض النصارى الذين اثبتوا لهُ بطلان عبادة الاصنام وسموّ تعاليم الانجيل الطاهر فقادوهُ واخاهُ الى دُعاة الدين المسيحيّ فصبغوهُ بصبغة العماد ونصّروهُ

فمذ ذاك الحين اتخذت عيشة افيان اشبه بعيشة الملاك فانهُ زاد في زهدهِ بحطام الدنيا وفي امتناعهِ من لذّاتها فعاش بينها كالوردة في وسط الاشواك لم يفقد شيئاً من عرف طهرهِ او كان كالفتية الثلثة في اتون النار لم يشط فيها شعرة من شعر رأسهِ

والحقُّ يقال انَّ بيروت في عيد الوثنيّة كانت كمصيدة للنفوس البارّة لكثرة ما فيها من دواعي الفجور فانَّ هواءها الطيّب وحدائقها وحمّاماتها ومقاصفها وملاعبها مع كثرة الشبّان المتزاحمين فيها كانت تعرّض باهل الصلاح الى اعظم المخاطر والى اسباب الخطإ . وقد شبّهها القديس غريغوريوس اللاهوتيّ بساحرة كانت تفتن عقول الاحداث وتهوي بهم الى ردغة الرذائل

وما كان يزيد تلك المدينة عثرةً لذوي البرّ ما أُقيم فيها من هياكل الاصنام التي تعظّم الاثام وتؤلّه القبائح . فكان الوثنيّون اقاموا في بيروت هيكلًا لإلهة الزنى عشتاروت ولاله الخمر والقصف باخوس . وكان لهذه الهياكل سَدَنة يتاجرون بالعبارة ويكتسبون بالفجور وقد نعت الشاعر ثُوس بيروت كما كانت على عهد الوثنيّة بنعوت تقشعرّ لها الابدان وتشمئزّ الالباب فتارةً يدعوها بلاط عشتاروت وتارةً يسمّيها مقام اللذّات البهيميّة وهيكل المرح والبطر . وربّما استفاض في وصف ما يُحدق بها من الغابات الصنوبريّة وما يجاورها من الاكمات وما يُشرف عليها من الرُّبى المزدانة بالآثار والابنية الفخيمة منها هيكل بيت مري الذي كان يتوارد اليهِ الزوّار من انحاء

فينيقية . وكانت كلّ هذه الاماكن مدعاةً للتنعُّم ورفاهية العيش والخلاعة تجذب اليها قلوب الاحداث جذب المغناطيس للحديد

وعليهِ فيحقُّ الثناء لأفيان الذي كبح اهواء قلبهِ وجعل خوف الله كعنان ضبطها بهِ وردّهـا عن المغاوي المهلكة وتسلّح باسلحة البرّ والتقى وامانة الحواسّ ليتجو من الخاطر المحدقة بهِ . وكان يوم معموديّتهِ اتّشح بثوب ابيض اشارةً الى نقاوة حياة المسيحيّ فاتّخذ هذا الثوب رمزًا للعيشة الملائكيّة التي فرضها على نفسهِ منذ ذاك الحين

والحقّ يقال انّ قداسة افيان لم تبقَ محجوبةً عن اعين زملائهِ فكانوا يتعجّبون من سيرتهِ الصالحة فمنهم من كان يسخر بهِ ويراهُ غريبًا في اعمالهِ متفرّدًا في نزعاتهِ ومنهم من كان يجد في فضلهِ وفضيلتهِ كمهماز لضميرهِ وزاجر لسوء صنيعهِ . وقد عمل مثل افيان في بعض رفقائهِ حتّى اتّخذوهُ قدوةً وساروا على آثارهِ وطلبوا صداقتهُ فزرع في قلوبهم الزرع الجيّد الذي اتى في حينهِ بالثلثين والستين والمئة

*

وبعد خمس سنوات انتهى افيان واخوهُ من درس الشريعة الرومانيّة ونالا بذلك شهادة اساتذة بيروت فعادا الى وطنهما بعد ان شكرا الله على ما اتاح لهما في بلاد فينيقية من النعم لاسيّما نعمة التبصُّر التي فكّت عنهما اغلال الوثنيّة واضاءت عقلهما بانوار الخلاص ومتّعتهما براحة القلب

ثم اردف اوسابيوس كلامهُ فاخبرنا لقيهُ افيان عند رجوعهِ الى وطنهِ من ألطاف والديهِ ومن تحفّي الاصحاب واكرام المواطنين . لكن الشابّ الورع ابى ان يخفي عن اهلهِ ما نالهُ من نعمة الدين وجعل ينقطع بينهم الى فرائضهِ التقويّة لا يكترث لما يجدهُ بينهم من العقبات . وكان اهلهُ يؤمّلون في بادئ الامر ان يغيّروا افكارهُ ويردّوهُ الى ديانة اجدادهِ فصبروا عليهِ مدّةً الى ان تحبط مساعيهم ثم تآمروا عليهِ ليثنوهُ عن عزمهِ فكانوا لا يدعون فرصةً الّا يتهزّونها ليحيدوا بالشاب عن منهجهِ الصالح حتى اضحت عيشتهُ بين اهلهِ ثقيلة مشئمة . وكان مع ذلك لا يزيد الّا ثباتًا في ايمانهِ وكان في ليقية عدد غفير من النصارى فاجتمع بهم وقاسمهم مناسكهم الدينيّة . وكان يتذكّر معهم ما اصاب وطنهُ من الفخر بنشوء النصرانيّة فيها منذ عهد حواريي المسيح . لانّ بولس الرسول كان نزل الى سواحل ليقية مرّتين وانشأ فيها الكنائس ونظّم الاساقفة .

فكان ذلك اثبت اساس لبيع ليقيـة التي حافظت على وديعة الدين بل سقى بعضُ ابنائها بدمهم تلك الغرسة الجيدة فلم تزل تنمو وتمتدّ الى أيام افيان وكثيرًا ما كان يردّد الشاب في فكره هذه المفاخر الدينيّة ليقوى على اضطهادات اهله

وكان تردُّد افيـان على نصارى وطنه وعيادة مرضاهم والاعتناء بسدّ حاجاتهم يشغلهُ عن حضور الاعيـاد الوثنيّة وعن المجالس الرسميّة والولائم البهجة والحفلات المطربة . وكان يتباحث معهم في امور الدين وربّمـا تذاكروا ما جرى لاخوتهم من الامتحانات والمصائب فصبروا عليهـا واحتملوها بشدّة على مثال سيّدهم وعلى مثال الرسول بولس الذي اجتاز بلادهم وهو اسير مكبّل بالقيود يحملهُ الجنـد الى قيصر رومية . وكان بعض الشهداء شرّفوا بلادهم في السنين الاخيرة كالشهيد پاريغوريوس الذي كان قبرهُ ممجّدًا مشهورًا بالآيات . وكالشهيد الناسك لاون الذي وثب عليـه عَبَدة الاصنـام فأغرقوهُ بالبحر وكان ذكر هؤلاء الشهداء لا يزال حيًّا في ذكر اهل ليقية يتناقلون فضائلهم وينشّط بعضهم بعضًا على الاقتداء بامثالهم والصبر على محنهم اذا ما تكرّر الاضطهـاد على المسيحيين . وفي الواقع كان ديوقلسيانوس الملك تولى الامر على الرومان وكان آل على نفسـه ان يستأصل الدين المسيحي من المملكة الرومانيّة كلهـا فاخذ يتعقّب النصارى حيثما وجدهم ويمتحنهم بانواع العذاب ويذيقهم اصناف الموت الزؤام . فكان افيان يشدّد عزائم مواطنيه ويبيّن لهم شرف الموت لاجل المسيح ويتمنّى لو يحظى باكليل الاستشهاد

وبقي على ذلك اشهرًا وهو يطلب من الله ان يصون ايمانهُ وينقذهُ من اعداء نفسه ولم يزل يستحثُّ بالصلاة حتى الهمهُ الربّ بان يخرج من بين ذويه ويعود الى سواحل الشام لعلّهُ يجد هناك بين معارفه الوسائل الكافية ليقوم بواجبات دينـه . ففي ذات الأيام اذ رأى سفينة تُقلع من بلاد ليقية الى جهات فلسطين امكنهُ ان يُقنع ربّانهـا بان يقبلهُ في جملة ركّابه . ثم توارى عن اهلهِ واقاربه دون ان يبالي بأخذ ما يحتاج اليه في سفره من مأكل ومشرب وملبس . وسارت به السفينة دون ان يشعر به احد

(لهُ تتمّة)